# المقدمة

بعد الدراسات المتعددة التى أعدها الباحثون في مجال فلسفة الأخلاق الإسلامية ، يعد من باب التجاوز القول مع القائلين إنه لا توجد فلسفة أخلاقية في الفكر الإسلامى ، كما يعد من الجور إهمال هذا الجانب الأصيل في الفلسفة الإسلامية .

قد يكون صحيحاً أن هذه الفلسفة لم تأخذ شكل الدراسة أو الكتابة العلمية المنظمة إلا في القرن الخامس الهجرى تقريباً ، وهذا يرجع إلى كفاية الكتاب والسنة للسلف الصالح كهاد ومرشد لهم في حياتهم العملية ، وبيان الصواب والخطأ فى أنماط السلوك الإنسانى ، الأمر الذى كفاهم مؤونة البحث والنظر فى تصوير قواعد ثابتة لسلوكهم ، تكون في مجموعها فلسفة أخلاقية خاصة بهم .

إلا أنه وبالرغم من ذلك ، لا يمكن لأحد أن ينكر أن لهذه الفلسفة أصولا عميقة مردها إلى الكتاب والسنة أولاً ، وإلى ما سرى إلى التراث الإسلامى من تعاليم الشعوب التى إعتنقت الإسلام فضلاً عما أقره الإسلام من سنن العرب في الجاهلية ، وما انتقل إلى الثقافة الإسلامية من ثقافة يونانية ورومانية ، أو حكم هندية وفارسية . والسلوك البشرى عرضة لتحول ومحاكاة مستمرين ، ومن ثم كان الفكر الأخلاقى في الإسلام يسير في اتجاهين واضحين :

**الاتجاه الأول** : يقوم على طائفة من الوصايا والنصائح والتوجيهات للملوك والرؤساء والوزراء ، بل للأفراد وعامة المسلمين ، معتمدة على الكتاب والسنة ، ومستمدة منهما في الغالب ، وقد صدر عدد من المؤلفات في هذا الباب منذ زمن مبكر ، وحمل معظمها عنوان " مكارم

الأخلاق " ويمكن أن نذكر بين رجال القرن الثالث الهجرى ابن أبى الدنيا والخرائطى والطبرسى وللأخير كتاب متداول بين أيدينا .

ولا تخلو كتب الحديث نفسها من توجيه على هذا النحو ، ومنها ما جمع أحاديث معينة للتدليل على فضيلة أو فضائل خاصة ، وأطرد السير على هذا القياس في القرون التالية ، ويكفى أن نشير إلى علمين اثنين ، أولهما ابن حزم في رسالته " مداواة النفوس " وثانيهما أبو حامد الغزالى صاحب الموسوعة الكبرى " إحياء علوم الدين " وهى بحق المرجع الأول لدارسى الأخلاق العملية في الإسلام ، ولم تتوقف هذه الدراسة حتى اليوم ، وبين معاصرينا كثيرون عنوا بها ، ونذكر منهم محمد جاد المولى ، صاحب كتاب " الخلق الكامل " ، وهى دراسة توجيهية تقوم على أساس النصائح والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، مستشهدة بالحكمة والمثل ، أو بالأحاديث والنصوص القرآنية [1] .

ولابد لنا أن نشير أيضا إلى دراسة أخرى أشد عمقاً وأكثر استقصاء ، وهى رسالة الدكتوراه التى تقدم بها "محمد عبد الله دراز" إلى جامعة باريس وعنوانها : *La Morale de Koran* ، وقد ترجمت إلى العربية تحت عنوان " دستور الأخلاق في القرآن " وهى دراسة ترمى كما أشار واضعها إلى بيان الطابع العام للأخلاق التى تستمد من القرآن ، دون أن تهمل ما قام به الأخلاقيون الإسلاميون والفقهاء والمشرعون ، وفيها حديث عن النية والقصد ، والجزاء والمسئولية ، والخير والشر ، ولكنها تتركز حول الأخلاق العملية .

**والاتجاه الثانى** : إتجاه نظرى ، يعرض للقضايا والنظريات الأخلاقية محللا لها ، ومحاولا تفسيرها في ضوء العقل والنقل ، كنظرية الخير

---

([1]) د. توفيق الطويل : الفلسفة الأخلاقية نشأتها وتطورها ، دار النهضة العربية ، مصر سنة ١٩٦٧ ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

والشر ، أو فكرة الإرادة والمسئولية ، أو الثواب والعقاب ، أو نظرية الواجب والسعادة ، ولا شك أن مفكرى الإسلام في القرن الثانى الهجرى وما بعده ، من فلاسفة ومتكلمين ، بل من صوفية وفقهاء قد عرضوا الشئ من ذلك ، ولكن بصورة متفرقة .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المشائيين العرب في المشرق والمغرب قد عرضوا لكثير من المشاكل الأخلاقية فى استقلال ، أو مختلطة بالمباحث السياسية أو الميتافيزيقية ، ولعل أوضح مثل للدرس الفلسفى للأخلاق نجده عند " ابن مسكويه " ، وإن اختلطت لديه الأخلاق بعلم النفس والميتافيزيقا . والمعتزلة من أسبق المتكلمين إلى البحث في مشكلة الخير والشر ، والحسن والقبح العقليين ، كما عرضوا لشئ من نظرية القيم الحديثة ، والتصوف سلوك عملى وروحى وتربية تقوم على مخاطبة النفس والتأمل والتدبر .

وكان لابد للفقهاء والأصوليين أن يعرضوا لمشكلة الواجب والمسئولية ، وأن يضعوا لكل منهما قيوده وشروطه . ولم يعالج هذا الجانب الفلسفى بعد العلاج اللائق به . حقا إن بعض المستشرقين قد عرجوا عليه في نظرة سريعة وغير مستكملة . وعرض "زكى مبارك" للأخلاق عند الغزالى ، و "عبد العزيز عزت " لابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية .... وحاول " محمد يوسف موسى" ، أن يوضح " فلسفة الأخلاق في الإسلام " مبيناً صلتها بالفكر اليونانى ، كما تناول " أحمد محمود صبحى " – " الفلسفة الأخلاقية بين العقليين والذوقيين " مبيناً وجهة نظر المعتزلة والمتصوفة . ولم يفت أستاذنا " توفيق الطويل " في كتابه " الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها " أن يقف عند الفكر الأخلاقى الإسلامى . ولكن بالرغم من هذا كله فإن مجال البحث في هذا الميدان

لا يزال ذا سعة ، وما أحوجه إلى دراسة شاملة تلم شعثه وتبرز أوضح معالمه .

بعد هذا كله فقد يكون من الخطأ أن يقال أن الفكر الإسلامى لم يعرض للمشاكل الأخلاقية ، ولم يعالجها في استقلال ، أو لم يعرضها عرضاً علمياً . والأخلاق العملية ، وهى باب هام من أبواب الدراسة الأخلاقية قد عولجت على مر القرون الماضية في صور شتى ووضعت فيها مؤلفات يعتد بها ولا تزال تغذى الأجيال الحاضرة. .

وفى الأخلاق النظرية بحوث ودراسات شائقة موزعة يميناً وشمالاً بين مفكرى الإسلام ، وعلى الباحث أن يرجع إليها في مظانها . وقد عبر أستاذنا محمد توفيق الطويل عن ذلك بوضوح قائلاً : " تبدو الأخلاق متغلغلة في جميع فروع المعرفة الإسلامية ، يؤكدها القرآن الكريم والحديث النبوى ، وتمكن لها الوصايا والنصائح والآداب العامة ، ونتغنى بها الأشعار وتمتدحها القصص والأمثال ... ولكن حظ التفكير الأخلاقى علماً مستقلاً عن كل هذه الفروع من المعرفة يبدو ضئيلاً بالقياس إلى غيره من ألوان الفكر العلمى والفلسفى عند أعلام مفكرى العرب ، والكثير مما نقرأه لهم من وجوه التفكير الأخلاقى الذى يتسم بطابع علمى أو فلسفى قد زودهم به التفكير الأجنبى الدخيل ، الذى تهيأ لهم منذ أن اتصلوا بتراث الأمم القديمة المتحضرة منذ منتصف القرن الثامن (الميلادى) وأخذوا ينقلون إلى العربية كنوزه ، ويضيفون إليها الكثير من وحى عبقريتهم وفيض خبراتهم الفنية الخصبة [1] .

---

([1]) د. توفيق الطويل : المرجع السابق ، ص ١٣٦ – ١٣ .

وندع جانبا تلك الآراء غير المنصفة التى نفت وجود تفكير أخلاقى لدى المسلمين كما صنع " البارون كارادى فو" في كتابه عن الغزالى [1] .

ولم يكن غريباً أن يغفل مؤرخو علم الأخلاق من الغربيين الفكر الإسلامى مع أنه حلقة لها شأنها في تاريخ الفكر الأخلاقى بوجه عام ، وكيف نتصور أن تقوم تعاليم دينية بعيدة عن أساس أخلاقى . وقد أشرنا من قبل إلى عناية الكتاب والسنة بهذه الناحية . ولكن من الخطأ أن نزعم أن هذين المصدرين الدينيين يقدمان مذهبا أو مذاهب أخلاقية مكتملة ، فهما بلا شك دعامة لهذه المذاهب ، ولكن علينا أن نتلمسها في عمق وتفصيل لدى المفكرين الإسلاميين ، وإذا كانت الأخلاق العملية لما لها من صبغة دينية ظاهرة قد طغت على الأخلاق النظرية فإنها لم تلغها .

حقا إن هذه موزعة بين مدارس وباحثين مختلفين ، وعلينا أن نلم شعثها ، وأن نقدم عنها صورة مكتملة ، وهذا ما أخذنا أنفسنا به فى بحثنا هذا . ويدور حول المذاهب الأخلاقية الكبرى ، وأخصها مذهب الواجب ومذهب السعادة . وقد قسمنا هذه الدراسة إلى بابين منفصلين :

ينصب أولهما على مذهب الواجب في حقيقته ومدلوله ، ويعنينا أن نشير إلى أصول فكرته في الكتاب والسنة ، ثم نعرض له في المدارس المختلفة بين متكلمين وفلاسفة ، فقهاء ومتصوفة . ونحرص حقا على تحديد مميزات الواجب وخصائصه ، وما يقوم عليه من مسئولية والزام ، محاولين أن نقارن ذلك بأشباهه في الفكر الإنسانى

---

( [1] ) البارون كارادى فو : الغزالى ، ترجمة عادل زعيتر ، مصر سنة ١٩٥٩ ص ١١٩ وما بعدها .

القديم والحديث والمعاصر . ولن يفوتنا أن نوجه النظر إلى ما يمكن أن يكون قد ارتد إلى الثقافة الإسلامية من مؤثرات قديمة شرقية أو غربية.

وينصب الباب الثانى على مذهب السعادة في حقيقته ومدلوله على نحو ما صورته تعاليم الإسلام ، ووجهة نظر المدارس الإسلامية المختلفة ، وصلة ذلك كله بالفكر القديم والحديث .

وقد التزمت في هذه الدراسة بالمنهج التاريخى معولا على النصوص واستنباط ما يستخلص منها من آراء ، ولن أعبر عن أحد إلا في ضوء كلامه ، محاولا ما استطعت أن ألم الشعث وأجمع المتفرق . ولم يفوتنى أن أستعين بالمنهج المقارن فاربط الأفكار بعضها ببعض ، وأبين وجوه الشبه أو المخالفة ، ولم أقل بتأثير أو تأثر إلا ما قام دليل عليه . ولم أزعم أنى بلغت الغاية ولكنى نحوت نحواً أرجو أن يتابعه ويتلمسه الآخرون . وأعتذر سلفا عما أكون قد وقعت فيه من خطأ أو زلل . وحق ما قال العماد الأصفهانى : " إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غيرت هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

ومن قبل ومن بعد أرجو الله أن يكون عملى هذا طلبا لمرضاته ، وسعيا وراء الكشف عن حقيقة المعرفة ، وأن أكون بذلك قدمت لبنة جديدة في صرح المكتبة العربية الإسلامية .

**وعلى الله قصد السبيل ، وما توفيقى إلا بالله .**